في الحب والمرأة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أنا — كما لا يعرف القارئ وإن كان لاشك لبيباً — أكره أن أُحِب أو أن أُحَب . ولهذا النفور من الحب أسباب شتى ، منها أنه لا يد لي في الأمر ، ولا سلطان لي عليه ، والمرء يصاب بالحب كما يصاب بالزكام — بكرهه وعلى الرغم منه — ولو خيّر لاختار السلامة وآثر النجاة ، ومن ذا الذي يطيب له أن يتوعك ؟ والحب حين يغمر النفس يذهلها عن لذته وحلاوته ، ويشغلها بالوجيب والقلق والخوف والرغبة والغيرة ، ولهذا كان أمتع ما فيه ذكراه — أي بعد أن تفتر الحرارة وتسكن النفس ويزول الاضطراب والقلق — أو تنتفي دواعيهما بفتور الرغبة — وقد يكون البحر الجائش العباب رائعا ولكن ركوبه لا يحلو ، واعتسافه لا يؤمن ، والنفس مثله . وقد يسمو بها اضطرام الحب فيها إلى الجلال ، ولكن الاحاطة بما تضطرب به والغوص عليه لا يتسنيان إلا بعد الهدوء ؛ وقد يلهم المرء شيئاً وهو هائج ، ولكن النظرة المباركة هي التي تدور بها العين في أنحاء النفس بعد أن تعود اليها سكينتها وصفوها ويتيسر الوصول إلى أغوارها والنفاذ إلى زواياها والتغلغل في سراديبها .

ومن الأسباب المزهدة أني رجل عادل منصف ، أو دع الانصاف وقل إن الله خلق لي في وجهي عينين ، فما خيرهما إذا أنا لم أنظر بهما ؟؟ والمرأة مستبدة ، ومن استبدادها أنها تغضب وتثور وتسوّد عيشك اذا نظرت إلى سواها . وعبثٌ أن تحاول أن تفهمها أن الأغضاء عن كل هذا الجمال الذي في الناس ، قلة عقل ، وقصر نظر — بل عمى — ؛ وماذا تصنع العينان إذا لم تبصرا ؟ وأي عمل آخر لهما هناك ؟ وكون المرأة التي يُبتلى الانسان بحبها جميلة ليس معناه أن النساء غيرها دميات ؛ وحبك إياها لا ينبغي أن يتقاضاك مقت النساء الأخريات وتنقصهن ؛ والاعجاب بهن لا يعد ثلباً لحبيبتك ، وفي وسعها هي أيضاً — إذا شاءت وكان هذا مما تستطيع — أن تعجب مثلك بهن . والرجل الذي يفقده الحب القدرة على الاعجاب بالجمال في صوره المختلفة يكون فاسد الذوق ، ولو عقلت المرأة لكان هذا كافياً لتشكيكها في رأيه فيها

ويزهدني في الحب أيضاً أن مناظر العشاق مضحكة ، وأحوالهم سخيفة ، ومبالغاتهم شديدة ، ودعواهم عريضة ، وعمى قلوبهم وأبصارهم تام عن كل ما يحيط بهم . وأي عاشق لم يقطع ألف وعد بالوفاء المستحيل ؟ بل أي محب لم ينس طربوشه مرة ، أو لم يلبس طربوشين واحدا فوق الآخر (ومع ذلك تراه لذهوله يدور باحثاً عن طربوشة لظنه أن رأسه عار !) أو لم يبد للناس في الطريق أو الترام ملتاث العقل مخبولا ، يضحك ويقطب بلا سبب ظاهر ، ويشير بأصابعه أو يلوح بيده ، أو يكلم نفسه ؟ والأرق ؟ لا أدري لماذا لا ينام العشّاق ملء جفونهم كما ينام عبادُ الله الآخرون ؟ ولكن الذي أدريه أن النوم المزعج قلما يؤاتيهم أو يسعفهم بسكينته ، وتالله إن العاشق لمسكين ! لا نوم الليلة يا صاحبي لأنك حين ذهبت الى بيت حبيبتك رأيتها مطلةً من النافذة وناظرةً الى جهة غير التي تعرف أنك آتٍ منها ! فهل كانت يا ترى تنتظر سواك ؟ وعليك أن تذرع أرض الغرفة مائة ألف مرة هذه الليلة وتقطع خمسمائة فرسخ — جيئة وذهوبا — لأنك وأنت معها جعلت ذراعك حولها وهممت بضمها وتقبيلها فجنحت الى الدلال ونفرت من العناق ، وكانت تبتسم ، ولكنها قالت « من فضلك ! » من فضلك ؟ ، وهل بيننا « من فضلك ؟ » . هذا كلام يقال للأغراب ، وتكلف في التعبير لا يكون بين المحبين ! ويظل طول الليل يدب على رؤوس النيام تحته . وفي ليلة يسير على وجهه في الشوارع كالمتشردين ، ويحدث نفسه بالانتحار ، ويجتاز جسر اسماعيل ، وعينه الى الماء الذي يتدافع بين قواعده ، وقد يسأم التدخين فيلقي بعلبة السجاير في الماء ويغرقها فيه بدلا منه وفداء له ، وبعد خمس دقائق يشتري غيرها . ولا يزال يتمشى حتى يرتاب في أمره الشرطة ، ويرى منهم ما يرد اليه بعض ما عزب من عقله ، فيرجع إلى البيت مضعضعاً مهدوداً . . . الى آخره ، إلى آخره

ثم إن الحب إذعانٌ ، ومن أحب امرأة فقد أسلم أمره — الى حد ما — لأهواء لا ضابط لها ولا كابح ، ولا تميز فيها بين الممكن والمتعذر ، أو اللائق وغير اللائق ؛ وقد يطير الحب عقل الرجل — بل هو يفعل ذلك على التحقيق — ولكنه لا يستطيع أن يغير أسلوب تفكيره ولا أن يجعله كأسلوب المرأة في تفكيرها . وعسيرٌ أن يظل الحب قادرا على إخفاء الفوارق بين أسلوبي

الرجل والمرأة في التفكير . وهب وقدته تبقى زمناً طويلا – وهو ما أشك فيه ولا أومن به – فان توالى اصطدام العقليتين خليق أن ينبه الى هذه الفوارق وأن يزعج الرجل ويحيره ، وقد يفضي به الى السآمة

والمرأة التي ترى نفسها محبوبة تتوهم أن الرجل أباحها ظهره فهي تركبه وتركضه كيف شاءت والى حيث ينزو برأسها أن تذهب ، ولا تبالي ما يصيبه من الارهاق والجهد والاعياء والملل ، ولا يخطر لها أن كده على هذا النحو ولجاجتها في ذلك خليقان أن يخمدا وقدة الحب

والدلال ، ماذا تقول فيه ؟ إنه مصيبة كبيرة وبلاء عظيم ، ولكن المرأة تحسبه وقود الحب ، فلا سبيل إلى شيء إلا بعذاب غليظ من هذا الدلال الثقيل ، إذ كانت المرأة تسيء الظن بقيمة الأستجابة السريعة ، ولا تؤمن إلا بقول القائل — قاتله الله كائناً من كان ، فقد نسيت من هو — : « وحَبَّ شيء إلى الانسان ما منعا »

قلت مرة لامرأة وقمت بينها وبين حبيبها نبوة من جراء دلالها وإبائها عليه قبلة اشتهاها : « ياستي أنت تحبينه ، وهو يحبك — أليس كذلك ؟ »

فألقت إليّ نظرة خبيثة ، فهززت رأسي وقلت : « نعم أو لا ؟ أيهما ؟ قولي بلسانك »

فقالت : « لكأني في مدرسة ! »

قلت : « ومن الذي غشك وأوهمك أنك استغنيت عنها ؟ ؟ إنك لم تشبي عن الطوق إلى الآن ، ومازلت إلى هذه الساعة بنتاً صغيرة جاهلة ، أجدر بك أن تخرجي إلى الشارع ، فتلعبي فيه بالحبل ... »

فلم يسؤها مني هذا الطعن لأنها كانت تعرف عطفي عليها ، وحبي لخيرها ، فأعدت عليها السؤال ، فقالت : « نعم »

فقلت : « أشهد ألا إله إلا الله ! وقد اشتهى منك قبلة ، فهل كنت تأنسين من نفسك استعدادا للاجابة ورغبة فيها ؟ »

فضحكت وقالت : « هذا اشبه بالتحقيق . . . . شيء جميل والله ! »

قلت : « هو تحقيق . . . فأجيبي »

فصاحت : « ولماذا لم يقبلني ؟ ماذا منعه ؟ »

فصحت بدوري : « إيه ؟ ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول إن روحي كانت على شفتي . . . . وكنت أتلهف على قبلته ، ولكنه لم يفعل وذهب يتكلم ... سخيف ! »

قلت : « ليس هو وحده السخيف »

فرفعت وجهها إليّ ، وزوت ما بين عينيها ، فقلت : « أنا أيضاً مثله . . . . . فقد كنت أحسبه مؤدباً ، وأعده مهذباً ، فاذا به مغفل ! »

فضحكت ... وهكذا المرأة أبداً ... ومن هذا الذي يجرؤ أن يزعم أنه يعرفها معرفتها ؟ يفعل الرجل الشيء يطلب به رضاها ، فاذا هي ساخطة ضجرة ؛ ويتقي الشيء يخشى أن يغضبها بفعله ، فاذا هي تلومه وتؤنبه وتعد ذلك من ذنوبه ؛ وتختصر الطريق وتمشي إلى غايتك مباشرة ، فتراها تؤثر اللف والمحاورة ، فتروح تدور فتجدها قد تغير مزاجها ، واختلفت رغبتها وانقلبت تؤمن بأن الخط المستقيم أقرب ما بين نقطتين ؛ وتهدى اليها تحفة تتعب في انتقائها ، وتغرم في سبيلها نصف دخلك ، فتقول : « هلا استشرتني قبل أن تشتريها ؟ » ؛ وتستشيرها في مرة أخرى فتقول : « لو فاجأتني بالهدية لكان ذلك أحلى وأوقع » فأنت معها أبدا على كف عفريت سكران

وعقول الرجال في رؤوسهم ، أما عقل المرأة فقد يكون في حذائها – ولكنه على التحقيق – ليس في رأسها . وضائع ، ضائع ، من يجادلها بمنطق الرجال ، أو يكلمها كلام العقل ، فما عرفتُ ذلك يجدي معها . ولو أن رجلا أتى على عقل امرأة بكتاب في ثلاثين جزءاً لما بلغ من نفسها ما هو خليق أن يبلغ بكلمة ثناء مفردة على جمالها — ولو كذبا — أو نظرة اعجاب واحدة الى حذائها وإن كان أضخم من الباخرة نورماندي ، أو مسحة بكفه – في حنو ، ولو متكلفا – على شعرها وإن كان كضوء القمر

ولست أذم المرأة ، وكيف أجرؤ ، وهي زينة الحياة وسر سحرها ؟ ولكني أقول إنها مخلوق آخر ، غير الرجل ، وهو قول ليس فيه جديد ، ولا شك أن الرجل يبدو للمرأة – كما تبدو هي له – مستغرب الأطوار شاذا في أسلوب تفكيره ، وطريقة تناوله للأمور

ابراهيم عبد القادر المازني